

بسم الله الرحمن الرحيم



غاية النظام الفطري

لولا الأمور الفطرية ، تلك الأمور التي علمياً أخذت أسم الغرائز و لغويّاً الطبائع لما إستطاع الإنسان البقاء . بقاء ليس للأصلح و لا للأقوى و إنما للأتقى ، لو إن البقاء للأقوى لما إنقرضت الديناصورات و بقت العصافير ، و لو إن البقاء للأصلح لما ماتت الأحرار و بقت العبيد ! دائماً أكرر مع نفسي : قانون على الأرض لا يفيد تموت الأحرار لتعيش العبيد .

غاية النظام الفطري هو إقرار العبد العبودية للمعبود . النظام الفطري بحاجة لتعبيد و هذا التعبيد هو ليس إنتقاص من نظام الخلقه معاذ الله ، لكي تسير العربة بأمان على الأرض لابد من تعبيد الأرض لها ، ليس تعبيد الأرض نقص أو إنتقاص من الأرض و إنما فعالية و هكذا نظام الفطرة . تكمل مثالية نظام الفطرة من خلال منظومة أخلاقية ، مرجعية دينية، خلفية معرفية ، و أرضية فكرية . هدفي من المقال هذا هو شق طريق في الأرضية الوعرة للفطرة . خلقنا لا نعرف الله ، خلقنا لنعرف الله . الفطرة إن هدت لإله فلا تحدده ، و إن حددته حدته و إن حدته أبطلته . المعرفة إن هدت بلغته ، و إن أظلت أظلته . العرفان هي المعرفة التي تبلغه .

الفطرة أحد أنواع القوانين البدائية و البسيطة في النظام الوجودي للإنسان ، و لا تخضع لأي إدراك و معرفة مسبقة و إنما لأمر بسيطة مُبرمجة مُسبقاً على الخوف و الحيطة و الحذر و المصلحة و الأنانية . لو نظرنا للفطرة نظرة سلوكية فهي أرقى من السلوك الفيسيولوجي و أسمى من السلوك السايكولوجي و أدنى من السلوك الإبستمولوجي .

الفطرة و الأمور الفطرية من مقومات العيش في الغابة و كثير من الأمور الفطرية الموجودة عند الإنسان هي كذلك موجودة عند الحيوانات تحت أنواع المسميات كالغريزة و الطبيعة الحيوانية . ترجع جذور الخصائص الحيوانية عند الإنسانية الى هذه الأمور الفطرية أو الغريزية .

هل علينا أن نأخذ الإنسان على فطرته أم على معرفته ؟

ترجع جذور الفطرة البشرية الى مصادر الخوف (من العدو ، من الفقر ، من المرض ، من ...) و مصادر الحذر (من الغرق ، من الحريق ، من الأذى ، من ...) و مصادر الأنانية (المصلحة الفردية ، حبّ الذات ...) . الخوف و الحذر و الأنانية أهم القوى المحركة للأمور الفطرية و ينتج عنها ردود أفعال فطرية ليست بحاجة الى معرفة مُسبقة ، و أحياناً هي بحاجة للتجربة أكثر من إحتياجها للمعرفة ، و هذا يرجع الى بساطتها لأنها تخضع عند الإنسان (و الحيوان) الى إستنتاجات قياسية بسيطة حتى ترتقي هذه الإستنتاجات القياسية عند الإنسان لتصبح إستقرائية .

ما هي ردود الأفعال الفطرية للإنسان لو تغلب على الخوف و الحذر و الأنانية ؟

لو تغلب على الخوف بالقوانين المدنية و الجزائية

لو تغلب على الحذر بالضمان الصحي و الإجتماعي

لو تغلب على الأنانية بالعرفان و الحكمة و المكاشفة

لا يستطيع الإنسان بالإطلاق التغلب على قواه الفطرية و لا على ردود أفعاله الفطرية ، و إن إستطاع بنسبة عالية التغلب عليها فهو سيعود لمعاودتها عند إحساسه بالخوف و الحذر و المصلحة .

بعض الحكومات المعاصرة وفرت لمواطنيها قوانين مدنية و جزائية و ضمان صحي و معيشي و أهملت جوانب عديدة من النظم الأخلاقية ، حتى طغت المصلحة الفردية و الأنانية على الخوف و الحذر ، و في الجانب الآخر بعض الشعوب تفتقد لكثير من القوانين الجزائية و المدنية و تفتقد للضمان الصحي و المعيشي و تسعى لترسيخ جوانب من النظم الأخلاقية حتى طغى الخوف و الحذر و طغيان هذا النوع من الخوف و الحذر هو أنانية مزدوجة . هذان جانبان متفاوتان و يمكن مشاهدة جوانب عديدة من خلال مطالعة سلوك بعض الناس و الشعوب .

توجد بعض ردود الأفعال الفطرية ننسبها للبرائة و السذاجة . الى جانب هذه المصادر التي ذكرناها توجد صفات كالرحمة و الفداء و التضحية و حبّ الآخر و غيرها هي ليست فطرية و إنما تخضع لمصادر الفطرة . رحمة الأم بطفلها هي نتيجة حبّ الذات و الأنانية ، و كثير من أمهات الحيوانات (كذلك الإنسان) هي رحومة بطفلها و ليست رحومة بطفل غيرها و تتغذى على أطفال غيرها ! جميع الأمور التي نحسبها فطرية حتى تلك الصفات التي نحسبها صفات سامية تخضع لمصادر الفطرة الخوف و الحذر و الأنانية .

كثير من الأمور و جميع العلوم هي ليست فطرية و هي بحاجة الى دراسة و مطالعة و تحقيق و تجربة . تتأثر الفطرة بالعلوم كذلك تتأثر العلوم بالفطرة و غالباً لا تتأثر أي منها بالآخر . العلوم الرياضية على سبيل المثال هي ليست فطرية و إن كانت مسلماتها بديهية فممنشأ هذه البداهة غير فطري . مسألة الربّ و الخالق من البعد الفطري هي أكثر المسائل

تعقيداً و ذلك لتعارض أبعادها الفطرية و الفكرية لأنها لا ترتقي لشئ ملموس و لا لأمر محسوس . من الممكن إرجاع الإقرار بوجود الله للفطرة ، لكن معرفة الله سبحانه و تعالى ليست أمراً فطرياً . من الممكن إرجاع الإقرار بوجود الله للمعرفة فتتأثر الفطرة بهذا الأقرار . الفطرة عاجزة عن معرفة الله و ذلك لبساطة قوانينها و غالباً تكتفي بوجوده . الربّ الفطري صنمّ ، قوانينه تتماشى مع قوانين الغاية . لا تستطيع القوانين الفطرية صناعة أو قبول ربّ و إله لا يتلائم مع خوفها و حذرها و أنانيتها ، لذلك دائماً الربّ الفطري أقوى من خوفها و أضعف من أنانيتها.

الفطرة كقانون ، غير متكامل و لا يشمل الجوانب الفكرية و إنما المعيشية و تحيطه هالة من الغموض و الجهل و البلادة و كثير من ردود الأفعال الفطرية البريئة ترجع لتلك البلادة و لذلك الجهل .

ترجع جميع الصفات الحسنة و السيئة عند الإنسان لمصادر الفطرة ، البخل و الغرور و الغدر و الرياء و الخيانة و غيرها هي نتيجة الخوف و الحذر و الأنانية ، كذلك التغلب على مصادر الفطرة صفات حسنة كالتضحية و السخاء و الفداء و الرحمة و غيرها .

الخوف و الحذر اللذان يزولان من خلال القوانين الجزائية و المدنية و الضمان الصحي و المعيشي يعودان على الإنسان مع زوال أو ضعف هذه القوانين ، كذلك الخوف و الحذر اللذان يزولان نتيجة الإيمان يعودان بعد ضعف الإيمان . لا يمكن التغلب على الأنانية بالطرق المادية و العرفان و حده هو القادر على تهذيب الأخلاق و التحكم بالأنانية و إزالتها .

الفطرة كقوة ماورائية غايتها الحفاظ على الإنسان لتضمن له البقاء وفق قوانين الغاية بأي ثمن. خوفه من الآخر ، أعطى الآخر فرصة البقاء و في نفس الوقت سلب البقاء من

الآخرين . أنانيته أحتكرت و إنتهكت حقوق الآخرين ، حذره قيده و قيد الآخرين ، و هكذا . قوانين فوضوية تخضع لنظمّ خاص كقوانين الطقسّ ، لكنها ليست عشوائية و غير مُبرمجة .

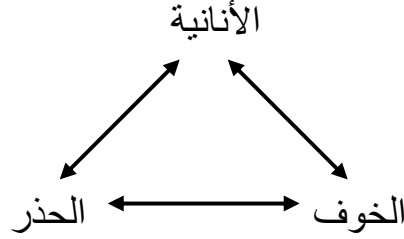
الأنانية هي منشأ الكثير من الصفات السيئة عند الإنسان و من القدم حاول الإنسان التغلب عليها من خلال رياضة النفس ، حتى خرجت من هذه الرياضة جميع مذاهب التصوف و العرفان ، نادراً ما يتغلب الصوفيّ على أنانيته من خلال رياضة النفس و الإنزواء و الإنقطاع عن الناس فيرتقي للعرفان ، و غالباً تعكس هذه الرياضة آثاراً على الروح و الفكر تؤدي الى بقاء الصوفيّ في تصوّفه . ليحارب الإنسان أنانيته يجب عليه أن ينقطع عن الماديات و يلجأ للمعنويات و هذا صحيح لكن إحتياجاته لبعض مقومات العيش تجبره ممارسة بعض الطقوس و الإستجداء و يترك هذا آثارا جانبية على الآخرين .

لو وفرنا قوانين مدنية و جزائية تضمن سلامة الإنسان فيتغلب على الخوف ، و يوفر ضمان صحي و معيشي يضمن له العيش فيتغلب على الحيطة و الحذر ، و يلجأ هو لنظام فكري متصوف يتغلب به على أنانيته ، سيتحول هذا الإنسان الى إنسان غير مُبدع و ذلك لوصول القناعة و الزهد عنده لذروتها و عندها يتوقف الإبداع نتيجة توقف المصالح .

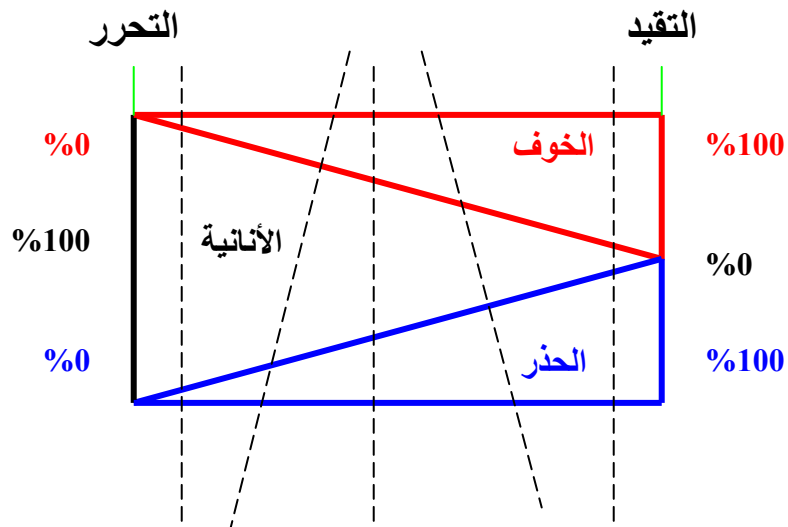
العلوم اللا فطرية تلك التي تبحث في مواضيع غير فطرية ، كالرياضيات و الفيزياء اليوم هي في مرحلة جداً متطورة . بينما العلوم الفطرية تلك التي تبحث في مواضيع فطرية ، كالأخلاق و الإلهيات و العلوم الفلسفية لا يمكن لها أن تصل لما وصلت إليه العلوم اللا فطرية . التعامل المزدوج (الفطري و المعرفي) مع مفهوم الله سبحانه وتعالى وضع وجود الله بين الإقرار و الإنكار .

ثلاثة مصادر فطرية عند الإنسان ، إستفحال أي منها يؤدي الى مفسدة إجتماعية و التغلب على أي منها يؤدي الى مفسدة أخلاقية ، الإستغناء عنها جميعاً يؤدي الى إنقراض البشرية و التغلب عليها جميعاً يؤدي الى قناعة مفرطة يتوقف عندها الإبداع و ينتشر اليأس !

ليس من الصحيح النظر للحیطة و الحذر و الأناية على إنها خوف ، المصادر التي ذكرناها (الخوف ، الحذر ، الأناية) منشأها واحد و هي الروح ، فالحذر ينتج عن الخوف و الخوف نتيجة الحذر الشديد و الأناية هي نتيجة الخوف و الحذر و هكذا ، الإرتباط بينها بهذا الشكل :



مصادر الفطرة هي من مقومات العيش في الغابة و لا تتماشى مع الكثير من التطورات العلمية و لا مع القيم الأخلاقية . التطور العلمي يلزمه نسبة قليلة من الخوف و الحذر و نسبة عالية من الأناية ، المثل الأخلاقية يلزمها نسبة قليلة جداً من الأناية و نسبة عالية من الخوف و الحذر . مخطط التقيد و التحرر :



و جود أعلى و أدنى نسبة على طرفي التحرر و التقيد هو العامل الذي أدى الى عدم خضوع المنظومة التحررية و التطورية للأخلاق ، و عدم خضوع المنظومة الأخلاقية و الدينية للتطور . يرجع التخلف العلمي في المجتمعات المحافظة ، و الإنحطاط الأخلاقي في المجتمعات المتحررة لهذه النسب . كل إنسان و كل مجتمع هو في وضعية على هذا المخطط .

مصادر الفطرة هي أحد أهم العقبات أمام الوصول للمدينة الفاضلة . الإنسان يمكنه البقاء و العيش في الغابة لفترة أطول بكثير من فترة بقائه في المدينة الفاضلة ! من الصعب توائم معرفة الله مع قوانين الغابة ، و جهله أكثر توائماً . الصراع المقبل في هذه الغابة بين الأقوى و الأتقى صراع لا لأجل البقاء و إنما لأجل الفناء ، فناء الأول في الدنيا و فناء الثاني في الله .

تترقى مصادر الفطرة عند كل فئة حتى تصبح :

- عند العابد الخوف من الله ، و عند الإقتصادي الخوف من الفقر ، و عند السياسي الخوف من العدو ، ... وكلنا عباد و إقتصاديون و سياسيون و ...
- عند العابد الحذر من جهنم ، عند الإقتصادي الحذر من الإنهيار ، و عند السياسي الحذر من الإنقلاب ، ... وكلنا عباد و إقتصاديون و سياسيون و ...

يسعى المتصوّف تبرير تخلفه العلمي بالكرامات ، و يسعى المتحرر تبرير إنحطاطه الأخلاقي بالجمعيات الخيرية !

مسئلة الخالق من أهم المسائل الفطرية . التعامل الساذج للإنسان مع هذه المسئلة و إخضاعها لمصادر الفطرة حولها الى أعقد و عند الكثيرين الى أسخف المسائل ! قوانين و مصادر العيش في الغابة جعلت معرفة الله سبحانه و تعالى عند الكثير من المستحيل .

مادام لا يمكن للإنسان التغلب بالكامل على الخوف فأى خوف هو الأفضل؟ و مادام لا يمكنه التغلب بالكامل على الحذر فأى حذر هو الأفضل؟ و طريق التغلب على الأنانية الحكمة و العرفان .

كل إنسان و مجتمع هو في ناحية على مخطط التقيد و التحرر . أيهم في الناحية الصحيحة؟ توجد حالة مثالية واحدة لا أكثر على هذا المخطط تليق بالأشخاص و لا ترتقى إليها المجتمعات هي أن تنعدم الأنانية ، و يكون الخوف من الله و الحذر من جهنم في أعلى نسبة ، عندها يملأ المبدع و هو الله خلأ الأبداع !

جلال الحاج عبد

2009 - 12 - 18



موقع جلال الحاج عبد

www.jalalalhajabed.com

البريد الإلكتروني :

jalal.alhajabed@hotmail.com

jalal.alhajabed@yahoo.com